المحاضرة الأولى

أوضاع العالم الاسلامي عشية الحروب الصليبية

اضحى العالم الاسلامي في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي موزعا في ولائه السياسي بين محورين : الخلافة العباسية والدولة الفاطمية ، بحيث كان النزاع والخصام السمة البارزة في تحديد طبيعة العلاقة بينهما ، فضلا عن سوء احوالهما الداخلية المرتبكة بالقدر الذي جعل بلاد الشام المجال الحيوي الذي تنازعت هاتان القوتان السيادة عليه ، موزعا بين عدة امارات صغيرة،فكانت كل مدينة كبيرة في بلاد الشام ، امارة مستقلة تحت حكم عربي أو من الاتراك السلاجقة .

الخلافة العباسية :

وقعت الخلافة العباسية تحت نير التسلط الاجنبي ردحاً من الزمن ، الامر الذي أدى الى انتشار الفوضى والاضطرابات ، فكانت النتيجة المترتبة على ذلك انفصال الولايات عن مركز الخلافة . ويتضح ذلك جليا في عهد التسلط البويهي (٣٣٤-٤٤٧هـ) اذ عامل البويهيون الخلفاء معاملة سيئة للغاية ، فضلا عن استحواذهم على كل مقدرات الخلافة ، فلم يكن وجود الخليفة العباسي الا اسما، بحيث انهم كانوا يعزلون ويولون من شاءوا فباتت الخلافة تعيش حالة من الضعف والتدهور حتى وصلت الحال بالخليفة العباسي المطيع لله (٣٣٤هـ-٣٦٣م) أن عمد الى بيع اثاث بيته ورخامه من أجل سد النفقات المطالب بها من قبل الامير البويهي بختيار بن معز الدولة كما وقد ازدادت الاوضاع سوءاً بعد أن حصلت النزاعات بين الامراء البويهيين أنفسهم والتي ادت بدورها الى استنفاذ كثير من موارد الخلافة من جهة واضعافهم من جهة اخرى مما أدى بدوره الى زيادة نفوذ الجند الاتراك ، الذين كانوا يشكلون جزءا مهما من الجيش البويهي ، حتى اصبحوا يتدخلون في تولية وعزل الامراء البويهيين ، ومن بين ابرز الشخصيات التركية التي ادت دورا بارزاً في هذا المجال ابو الحارث البساسري الذي تمكن من الاستيلاء على الانبار وطرد العقيلين منها في سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م . وقد ازداد نفوذ البساسري واستبد بالسلطة حتى اصبح الخليفة القائم بأمر الله لايقطع بقولٍ او فعلٍ دون ارادته او علمه ، فضلا عن مشاركته للخليفة في مراسيمه الدينية ، ليس هذا فحسب بل أخذ به الامر الى مكاتبة الفاطميين

وعزمه على نهب دار الخلافة والقبض على الخليفة ونتيجة لهذه الظروف السيئة التي تمر بها الخلافة العباسية ، اضطر الخليفة القائم بأمر الله الى استدعاء السلاجقة ، بقيادة طغرلبك ، يتضح ذلك من خلال الرسالة التي ارسلت اليهم ، وفي حدود سنة ٤٤٧هـ دخل طغرلبك بغداد ، استجابة لطلب الخليفة وخطب له على منابرها الى جانب اسم الخليفة ولقب بالسلطان ركن الدولة ويمين أمير المؤمنين وبدخول السلاجقة بغداد اخذ نفوذهم يزداد ، اذ استأثروا بالسلطة من دون الخلفاء بحيث اصبح السلطان السلجوقي هو صاحب الحل والعقد، مفوضة الامور اليه برأيه وتدبيره كما أنهم شاركوا الخلفاء بالمراسيم الدينية والسياسية ، اذ خطب لهم على المنابر كما فعل بنو بويه من قبل ونقشت اسماؤهم والقابهم على السكة الى جنب اسماء الخلفاء ، ومع هذا كله فان السلاجقة لم يتدخلوا في سلطة الخلفاء الدينية وظلوا يبدون لهم شيئا من الاحترام وخاصة في الفترة التي حكم فيها الب ارسلان (٤٥٥-٤٦٥هـ) اذ حرص هذا السلطان بأن تكون علاقته مع الخليفة علاقة ودٍّ واحترام ، فكان مطيعا لرغبات الخليفة ، يتبين ذلك من خلال الرسالة التي نفذت اليه من الامبراطور البيزنطي راجيا توسطه في عقد الصلح مع السلطان الب ارسلان ، وقد تم ذلك بعد توسط الخليفة ، وعلى الرغم من مظاهر الحب والاحترام المتبادل بين السلطان والخليفة الا ان ذلك لم يدم طويلا ، اذ حاول السلطان الب ارسلان سنة ٤٦٤هـ ان يتدخل في تعيين أحد وزراء الخليفة ، مما ادى بدوره الى تدهور العلاقة بينهما ، فقد عُد الخليفة هذا الفعل تدخلاً في شؤون الخلافة فرفض استقبال الوزير وعلى أي حال فان السلطان الب ارسلان وافاه الاجل في سنة ٤٦٥هـ ، فخلفه في حكم البلاد ابنه ملكشاه الذي يعد عهده عهد قوة وازدهار اذ اتسع سلطان السلاجقة ليشمل البلاد المحصورة بين كشفر شرقا الى انطاكيه غربا ومن بحر خوارزم شمالا الى حدود اليمن جنوبا ، فشملت بذلك ايران وبلاد ما وراء النهر واسيا الصغرى والفرات وبلاد الشام بحيث اصبحت هذه الدولة مصدر رعب يهدد العالم المسيحي ويخيفه ، ولكن هذه السعة والنفوذ لم تدم طويلا ، اذ أصاب هذه الدولة التصدع والانقسام على اثر وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥هـ ، فاحتدم الصراع بين ابنائه حول السلطة ، ويقول ابن خلدون واصفا حالهم (وكان بركياروق بالري والخطبة له بها وبالجبل وطبرستان وخورستان وفارس وديار بكر والجزيرة والحرمين ، وكان السلطان محمد بأذربيجان والخطبة له بها وببلاد الران وارمينية واصبهان والعراق جميعه إلا تكريت ، واما

البطائح فبعضها لهذا وبعضها لهذا . . . وأما خراسان من جرجان الى ما وراء النهر ، فكان يخطب فيها لسنجر بعد اخيه السلطان محمد). من الطبيعي أن تؤدي هذه الحرب والنزاعات بين افراد البيت السلجوقي الى خسائر جسيمة في الارواح والممتلكات ، فضلا عن ما يصيبها من ضعف وانقسام .

ومن خلال ما تقدم يمكننا القول أن السلاجقة الذين فرضوا حمايتهم على الخلافة العباسية اسهموا بشكل كبير في اضعافها ، الامر الذي حجب كثيرا من قدراتها وما تمثله من سلطة روحية ودينية بالنسبة لجميع المسلمين .

المصادر :

١. **ابن الأثير ، الكامل في التاريخ .**

٢. **ابن واصل ، مفرج الكروب .**

٣. **ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق .**

٤. **الراوندي ، راحة الصدور .**